قال الله تبارك وتعالى

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ
بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ (16)

مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ
ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ (17) صُمُّۢ
بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ (18) أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ
ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ
حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ (19) يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ
أَبۡصَٰرَهُمۡۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ
وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ
شَيۡءٖ قَدِيرٞ (20) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ
وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ (21) ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ
ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ
بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ
تَعۡلَمُونَ (22)

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله -صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا-.

أما بعد: فإن خير الكلام كلام الله تعالى، وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

انتهينا عند قوله جل وعلا {**وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ**}البقرة١٤-١٥، وقلنا إن هذه الآيات واردة في بيان صفات المنافقين، وقد تضمنت مقدمة هذه السورة، ذكر صفات المؤمنين في أربع آيات، ثم صفات الكافرين في آيتين، ثم الكلام على أحوال المنافقين، وكان المقام هاهنا أطول من السابق، حيث ذُكر فيهم ثلاث عشرة آية، وذلك لبيان أحوالهم لما فيهم من صفات كثيرة.

قال جل وعلا {**أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ**} هذا الوصف لهؤلاء المنافقين الذين يقولون آمنا وما هم بمؤمنين، والذين يخادعون الله والذين آمنو وما يخادعون إلا أنفسهم، والذين إذا قيل لهم لا تفسدوا، قالوا إنهم مصلحون، وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا لا نتبع السفهاء، ويرون لأنفسهم منزلة على غيرهم من الصحابة الكرام، والذين إذا لقوا الذين آمنوا أظهروا الإيمان، وإذا لقوا شياطينهم من الإنس والجن، قالوا إنما قولنا للمؤمنين أننا آمنا إنما هو من باب الاستهزاء والسخرية بهم، فهؤلاء هم الذين اشتروا الضلالة بالهدى، فصفقتهم في البيع والشراء أنهم اشتروا الضلال بالهدى، فقدموا الهدى ثمنا لضلالهم الذي ساروا عليه.

ولهذا قال جل وعلا هؤلاء الذين عدلوا وانحرفوا عن الهدى إلى طريق الضلال والانحراف، اعتاضوا عن الهدى بالضلالة، جعلوا مكان الهدى الضلالة عياذا بالله، فجعلوا الهدى ثمنا للضلال الذي اتبعوه وساروا عليه، وهذا يعمّ قسمين من هؤلاء المنافقين:

١= من لم يدخل في قلبه الإيمان أبدا، وإنما نافق أصلا، فكان يظهر الإيمان وهو في حقيقة حاله كافر.

٢= ومن وقع في قلبه شيء من الإيمان، ولكنه يتردد، ثم إنه يُظهر النفاق ويخالف ما في باطنه، {**أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى**} هذه صفقة تجارتهم، ولا شك أنها خاسرة كاسدة، وغير رابحة، ولهذا قال تعالى {**فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ**} أي ما ربحت هذه الصفقة، في هذه البيعة، وما هم على طريق الهدى والرشاد في صنيعهم هذا الذي صنعوه، فصفقتهم جعْل الهدى ثمنا للضلالة، فالذي ساروا عليه هو الضلال، وقدموا ثمنا لذلك الهدى، وهذه الصفقة خاسرة، وما كان هؤلاء الذين اختاروا هذه الصفقة على هداية ولا كانوا على رشاد.

ثم قال جل وعلا {**مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ**} بعد أن ذكر الله جل وعلا هذه الأوصاف لهم عقّب بعد ذلك بضرب الأمثال لهؤلاء، فضرب مثلين، مثلا ناريا، ومثلا مائيا، والصحيح على ما

رجحه بعض أهل العلم أنهما مثلان لصنفين، وإن كان كل من الصنفين يعتبر من المنافقين، فالمثل الأول مثل ناري، والمثل الثاني مثل مائي.

فأما المثل الأول قال {**مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا**} أي شبه الله جل وعلا هؤلاء الذين اشتروا الضلالة بالهدى، وجعلوا الهدى ثمنا للضلالة، مثلهم مثل ذلك الذي استوقد نارا، لتضيء له، وتضيء ما حوله، فوقعت الإضاءة وأضاءت ما حوله وانتفع بها، وأبصر بها جميع الجهات، ما عن يمينه وما عن شماله، ومن أمامه ومن خلفه، واستأنس بهذه الإضاءة وهذا النور، وبينما هو كذلك إذ انطفأت هذه النور، وصار في ظلام حالك شديد، لا يبصر ولا يهتدي، وهو مع ذلك أصمّ لا يسمع، وأبكم لا ينطق، وأعمى لا يبصر، فحال هذا لو كان في ضياء ونور، لكان في متاهة إذ لا يوجد من يقوده إلى الطريق الصواب، فكيف إذا انضمّ إلى ذلك أن يكون، في ظلام حالك، وفي شدة الظلام ويذهب هذا النور الذي كان معه.

فهذا مثل في الدلالة على أن هؤلاء في إيمانهم ورجوعهم عن هذا الإيمان، ونفاقهم عياذا بالله، كمثل هذا الذي ذكر الله جل وعلا حاله في هذا المثل، وهذا يدل على أن هؤلاء الصنف من المنافقين، قد وقع في قلبهم شيء من الإيمان، لأنه قال {**كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ**} هذه الإضاءة التي وقعت في قلب هذا هي إضاءة بنور الإيمان، فلما أن استأنس بذلك ذهب الله بنورهم، وتركهم في ظلمات لا يبصرون، فبعد أن وقع شيء من الإضاءة والهدى ودلالة ما وقع في القلب من إيمان، رجع إلى النفاق كحال من ذكر في هذا المثل.

ومما يدل على أن هؤلاء وقع في قلوبهم شيء من الإيمان قوله تعالى في سورة أخرى {**إِنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ**}المنافقون٣.

قال {**مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ**} في بداية الآية ذكر ضمير المفرد، ثم ذكر ضمير الجمع {**كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ**}، ثم قال {**ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ**} وهذا سائغ في لغة العرب، أي إرجاع ضمير الجمع على ضمير المفرد، فإن مثل هذا جائز ومستعمل عند العرب، والمراد أن الله جل وعلا أذهبَ عنهم ما ينفعهم وهو نور الإيمان، وأبقى لهم ما يضرهم، وهو إحراق الكفر والنفاق، والشك، والتردد، الذي في قلوبهم.

{**وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ**} أي لا يهتدون إلى سبل الخير، والحق، ولا يعرفونها، ومثلهم كمثل هذا الذي ذُكر {**صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ**}، صمٌّ أي لا يسمعون الخير، أو إذا سمعوه لا يهتدون

به، وإن كانوا يدركون ذلك بالسمع، فالمراد أنه سمع إدراك وليس سمع انتفاع، والذي يسمع الهدى ولا يتبعه حاله كمن لا يسمع، كأنه لم يسمع، ولهذا قيل له صمٌّ.

وقوله {**بُكْمٌ**} أي لا يتكلمون بما لا ينفعهم، وإنما يقولون ما فيه ضرر، وقوله {**عُمْيٌ**} أي في ضلالة وعماية البصيرة، فهم لا ينظرون ولا يبصرون ذلك الحق، {**فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ**} أي لا يعودون إلى ماكانوا عليه من الإضاءة بنور الإيمان، لا يعودون إلى الهداية التي كانوا فيها والتي باعوها بالضلالة، وجعلوا الهدى ثمنا للضلالة.

قال جل وعلا بعد ذلك {**أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**} هذا أيضا مثل آخر ضربه الله جل وعلا للمنافقين، وهو مثل مائي، المثل الأول مثل ناري، وهذا مثل مائي، والأمثلة كثيرة في القرآن كما ستأتي الإشارة إلى ذلك.

فحاصل هذا المثل {**أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ**} أي حال هؤلاء أنهم أقوام أحيانا يظهر لهم الحق، فيتبعونه، وأحيانا يشكون بقلوبهم ويترددون بكفرهم، {**أَوْ كَصَيِّبٍ**} والصيب بمعنى يصبّ والمراد به المطر، وقيل الصيّب بمعنى السحاب، والأشهر والأقوى أنه المطر النازل من السماء، {**فِيهِ ظُلُمَاتٌ**} أي في حال الظلمات، حال هؤلاء كمثل هذا، المطر الأصل فيه أنه فيه نفع، فهو صيّب يأتي بالنفع، وقد كان صلى الله عليه وسلم، كما ثبت في صحيح البخاري من حديث عائشة إذا رأى مطرا قال (**اللّهُمَّ صيبا نافعا**)[1]، فوصفه بالصيّب، فالأصل في المطر أن يكون نافعا، وكذلك ما يأتي هؤلاء من الهدى، حالهم كحال المطر النافع إلا أن هؤلاء قال الله جل وعلا فيهم {أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ} أي نزول هذا المطر في حال الظلمات، مرور هذا الهدى على قلوب هؤلاء في حال أنهم في شك وريب وكفر ونفاق.

{**وَرَعْدٌ**} الرّعد يزجر، وهؤلاء أيضا تأتيهم القوارع من الوعد، والوعيد، والأوامر والنواهي، والتهديد، والتوعّد، فهذه أيضا تزجر القلوب وتُحدث فيها من الخوف فلهذا كان شأن المنافقين في خوف وفزع شديد، كما قال في الآية الأخرى سبحانه وتعالى {**يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ**}المنافقون٤، وقال جل وعلا في الآية الأخرى {**وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ**

[1] [صحيح البخاري١٠٣٢]

وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (٥٦) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ}التوبة٥٦/٥٧.

وقوله {**وَبَرْقٌ**} البرق هو ما يلمع في الأفق -في السماء- والمراد هنا ما يلمع في قلوب هؤلاء النوع من المنافقين في بعض الأحيان من نور الإيمان، أحيانا تبرق في قلوبهم قوارع الآيات والهدى فتُحدث شيئا من نور الإيمان، كما يحدث هذا -أيضا- البرق في السماء، وحال هؤلاء أنهم إذا جاءهم الهدى {**يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ**}، فشبه الله سبحانه وتعالى قوارع الآيات، بقوارع الصواعق، جمع صاعقة وهو الصوت العظيم الذي يحدث في السماء في حين نزول المطر بوجود الرعد والبرق، فلشدة قوته وخوفا من الموت، يجعل الإنسان السبابتين في الأذنين حتى لا يزعجه ولا يتأذى بهذا الصوت، والصوت القوي والمرتفع قد يتأذى به الإنسان وقد يتأثر من جرائه.

قال {**يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ**} والمراد هو أصبع واحد، {**حَذَرَ الْمَوْتِ**} أي خوفا من الموت، فكذلك هم يفعلون هذا حتى لا يسمعون ولا تصل إلى آذانهم هذه القوارع، وهذا الهدى.

{**وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ**} قد أحاط عز وجل بهم علما، وقدرة ومشيئة، فلا أحد يخرج عن قدرته، ولا أحد يخرج عن مشيئته سبحانه وتعالى كما قال تعالى في حق فرعون {**هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (١٨) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (١٩) وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ**}البروج١٧-٢٠، ففعل هؤلاء من جعلهم الأصابع في الأذان لا ينفعهم ولا يجدي عنهم شيئا، لأن الله جل وعلا محيط بهم.

قال {**يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ**} أي لشدته وقوته في نفسه، ويقابل هذا ضعف البصائر وعدم قبولها للإيمان، فكما أن البرق يكاد يذهب ببصر الإنسان، فكذلك هؤلاء حالهم عند ورود هذه القوارع لشدتها وقوتها في نفسها وضعف بصائر هؤلاء، تكاد تخطف أبصارهم، كما قال جلّ وعلا.

{**كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا**} أي كلما أصاب هؤلاء المنافقين شيء من نور الإيمان في قلوبهم، أي كلما أضيء لهم الطريق مشوا فيه، كحال من يمشي في الطريق، إذا أضيء مشى، وإذا ساد الظلام فإنه يتوقف عن المشي، فهؤلاء أيضا هم على سير سليم، إذا انتفعوا بشيء من نور الإيمان، وإلا فإنهم يعودون إلى الظلام والضلال عياذا بالله.

وقال بعض العلماء: أي كلما أصاب المؤمنين شيء من الخير والعز اطمأن هؤلاء المنافقون على أنهم يظهرون الإيمان، ولكن إذا أصاب الإسلام نكبة أو ضرر، فإنهم يرجعون إلى الكفر -عياذا بالله

سبحانه وتعالى- وعليه تكون هذه الآية كمثل قوله تعالى {**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ**}الحج١١، {**كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ**}، {**وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ**}الحج١١، هذا قول آخر أيضا في تفسير الآية.

وقال بعض العلماء {**كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا**} أي أنهم يعرفون الحق ويتكلمون به، فهم من قولهم به على استقامة، ولكن إذا انتكسوا وعادوا إلى الكفر، كانوا متحيّرين عياذا بالله تعالى.

قال {**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ**} أي أذهب السمع والأبصار، وهكذا يكون حال هؤلاء يوم القيامة -عياذا بالله- فإن الله جل وعلا لمّا يعطي أهل الإيمان نورهم، ليهتدوا به ويسيروا به على الصراط، فإن هؤلاء لا يعطون نورا، وإنما يطفأ النور الذي يكون أمامهم ويكون مشيهم في ظلام حالك، فيسقط منهم من يسقط -عياذا بالله تعالى-.

{**إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**} أي أن الله سبحانه وتعالى قادر على كل شيء، واسم القدير هنا، له مناسبة في المجيء به، فالله سبحانه وتعالى ضرب هذين المثلين، مثلا ناريا، ومثلا مائيا، وفيه من عجائب القدرة، فذكر الله جل وعلا أنه قادر على كل شيء، فهو قادر على ما ذكر في المثل الأول، كما أنه قادر أيضا، على ما ذكر في المثل الثاني، وعلى هذا فالأصناف المذكورة في مقدمة هذه الآية، وهذه آخر آية في ذكر أحوال المنافقين، فالأصناف المذكورة هي صنف المؤمنين، وصنف الكافرين، وصنف المنافقين، وكل صنف من هؤلاء على قسمين، فأهل الإيمان ذكروا في الأربع آيات الأُول، والكفار الخلّص ذكروا في آيتين، والمنافقون ذكروا فيما تبقى من الآيات.

أما أهل الإيمان فإنهم أيضا على قسمين وهم السابقون والمقربون، والمقربون يشملون أهل اليمين، كما يشملون كذلك الأبرار.

والكفار أيضا هم على صنفين جاء ذكرهم في آيات أخرى، منهم كفار أهل تقليد واتباع فقط، ومنهم أهل جهل بسيط، ومنهم أهل الجهل المركب، وهذا جاء ذكره في كثير من الآيات، ومنها قوله سبحانه وتعالى في سورة النور {**وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ**}النور٣٩، هؤلاء أهل الكفر ممن يعاندون ويتشبثون ببعض الشبه.

وأهل كفر مقلّدة ذكرهم الله تعالى في قوله {**أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ**}النور٤٠، هذا في سورة النور، وقد ذكرَ أهل الإيمان من قبل، في قوله {**اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ**}النور٣٥، إلى آخر الآيات، فهؤلاء أهل الإيمان ثم ذكر أهل الكفر.

كذلك أشار إلى أهل الكفر في قوله تعالى في سورة الحج {**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ**}الحج٣، هؤلاء أهل التقليد للكفار، الكفار المقلدون، ومنهم من يدعي العلم، وهؤلاء كفار دعاة، أشار إليهم جل وعلا بقوله {**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ**}الحج٨.

وأما أهل النفاق فقد أشار الله إليهم هاهنا بهذين المثلين، المثل الأول، والمثل الثاني، أو هما على قسمين:

١= قسم منهم لم يدخل الإيمان قلبه أبدا، بل هو منافق خالص.

٢= ومنهم من وقر في قلبه شيء من الإيمان، ثم عاد وتردد في كفره عياذا بالله تعالى.

فإلى هاهنا ينتهي ذكر المنافقين، ثم استأنف جل وعلا في معان أخرى فشرع تبارك وتعالى في بيان وجوب عبادته سبحانه وتعالى وأنه الواحد الأحد، الذي يجب أن يُفرد بالعبودية، وبالألوهية.

فقال سبحانه وتعالى {**يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**} إذا تدبرنا هاهنا في هذا اللفظ {**يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ**} فأول أمر في كتاب الله، إذا بدأنا من سورة الفاتحة إلى هذا الموضع، أول فعل أمر هو هذا {**يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**}، وأيضا إذا جئنا إلى أول فعل في سورة الفاتحة، فإننا نجد هو فعل العبادة، {**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**}الفاتحة٥، أول فعل ذكر في بداية كتاب الله هو فعل العبادة، {**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**}، وأول أمر هو **(اعبدوا)** {**يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا**} وهذا لا شك أنه فيه الإشارة إلى عظمة العبادة، وأنها الأصل الذي لأجلها خلق الإنسان.

قال جل وعلا {**يَاأَيُّهَا النَّاسُ**} الخطاب لجميع الناس، ومثل هذا النوع من الخطاب، الغالب أنه يأتي في السور المكية، لكن يأتي أحيانا في السور المدنية كمثل هذه السورة.

{يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا} أمر جل وعلا بعبادته {اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ} أي توجهوا إليه بالعبادة التي هي التذلل والخضوع والخوف والانقطاع والانكسار بين يديه سبحانه وتعالى، {رَبَّكُمُ} هذا الرب هذا الخالق المالك المدبر، الذي يتصرف في شؤون جميع العباد، وعبادتكم له لأنه هو الخالق لكل شيء، والمالك لكل شيء، والمدبر لكل شيء، وهو الذي اتصف بصفات الكمال، وصفات الجمال، وصفات الجلال.

أما من كان فيه صفات نقص، فهذا لا يُعبد، كما قال جل وعلا في بيان أوصاف مما يعبده الكفار، فلا سمع لهم، ولا أبصار لهم، ولا يردون عن أنفسهم ضرا ولا يجلبون نفعا، فكيف يُعبدون من دون الله؟!، فهؤلاء فيهم أوصاف نقص، أما الله تبارك وتعالى فقد اتصف بصفات الكمال، يسمع ويبصر ويحدث للناس النفع، وكل شيء بيده سبحانه وتعالى.

فمن الأسباب التي تدفعك للعبادة أن تعلم أن الله هو الخالق، وهو الرازق، وهو المالك، وهو المدبر، وهو الذي يتصرف في شؤون العباد، وهذا السياق كثيرا ما يرد في القرآن الكريم، أن يذكر الله سبحانه وتعالى آثار ربوبيته لبيان وجوب إفراده بالألوهية، لأن الألوهية هي إفراد الله بالعبادة، والربوبية هي إفراد الله جل وعلا بالخلق والملك والتدبير، وهذه الأفعال تندرج تحتها أفعال كثيرة، وهذا الأمر وهو الاعتقاد أن الله هو الخالق والمالك والمدبر، وأن كل شيء بيده سبحانه وتعالى، ما يكاد ينكره أحد، ومن أنكره فإنما هو إنكار تكبر وجحود واستكبار، كما قال جل وعلا {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا}النمل١٤، وإلا ففي حقيقة أنفسهم يعلمون وجود الرب جل وعلا.

ولهذا فرعون لما أدركه الغرق قال {آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ}يونس٩٠، لكن في وقت لا تنفع فيه التوبة، هذا ما يكاد يخالف فيه أحد في الجملة، إلا ما يظهر الآن من مذهب الملاحدة، والطبائعيين، الذين يزعمون أن هذا الكون إنما جاء من آثار انفجارات، وحوادث طبيعية وفلكية، ونحو ذلك، وعلى إثر هذا جاء هذا الكون المتزن المتسق المترتب المنتظم، وهذا لا يقبله إلا مثل عقل هؤلاء، ومع ذلك فهم في أنفسهم يعلمون وجود الله تبارك وتعالى، ويعلمون أنه هو الخالق والمالك والمدبر.

فهذا أمر يكاد يتفق عليه الجميع، ولهذا يجعله الله تبارك وتعالى مرتبة للوصول إلى ما فيه الخلاف، فالكفرة والمشركون إنما يناقشون في إفراد الله بالعبادة، كما قال جل وعلا {إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ}الصافات٣٥-٣٦، وقال جل

وعلا في حق هؤلاء { **أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ**}ص٥، وقال {**قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا**}الأعراف٧٠، فهذا الذي أنكره هؤلاء، ويناقشون فيه إفراد الله جل وعلا بالعبادة، أما أنه خالق ومالك ورازق فهذا لا يناقشون فيه.

فالله تبارك وتعالى يقول إذا كنتم تعتقدون أن الله هو الخالق، وهو المالك، وهو المدبر، فهو الذي يجب أن يفرد بالعبادة، {**يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**} أي تتقون هذا الضلال وهذا الكفر، وهذا الشرك الذي أنتم فيه.

{**الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا**} أي الله سبحانه وتعالى، من أوصافه أنه جعل الأرض فراشا، مهدها، وثبتها بالجبال {**وَالسَّمَاءَ بِنَاءً**} جعلها بناء، كما قال جل وعلا {**وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ**}الأنبياء٣٢، {**وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً**} من السماء أي من السحاب، المراد هنا السحاب، {**فَأَخْرَجَ بِهِ**} أي بسبب ذلك، الباء سببية {**مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ**} فهذا الرزق الذي يخرج من هذه الأرض، يكون إثر نزول المطر، فهو سبب لإخراج هذه الخيرات والأرزاق، وغيرها من أنواع النعم.

ومادام الحال كذلك {**فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**} لا تجعلوا لله نِدا مساويا مكافئا نظيرا مماثلا، لأنه لا أحد يماثله سبحانه وتعالى {**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**}الشورى١١، فالذي خلق هو الله، والذي رزق هو الله، والذي يدبر ويتصرف وبيده شؤون كل شيء هو الله جل وعلا، والذي ينفع ويضر، ويرفع ويخفض، ويعز ويذل، كل هذا هو الله سبحانه وتعالى، والناس تقر بذلك، فلا يجوز إذن أن يُجعل لله ندا مماثلا نظيرا مساويا، فإن هذا من أعظم الشرك، وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال (**قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله ندا وهو خلقك**)[1].

فالآية تتضمن النهي عن الكفر وعن الشرك بجميع أنواعه، ولا شك أن هذا الشرك من أقبح القبائح، ولهذا جاء بيان مثل له أيضا في السنة، فكما أن القرآن فيه الأمثال، فأيضا السنة فيها كثير من الأمثال، فورد في الحديث الذي رواه الترمذي من حديث أبي موسى الأشعري والحديث له طرق حسنه كثير من العلماء، وفيه (**إنَّ اللهَ أمر يحي بنَ زكريا بخمسِ كلماتٍ أن يعملَ بهنَّ، وأن يأمرَ بني اسرائيلَ أن يعملوا بهنَّ، فكأنه أبطأَ بهنَّ، فأوحى اللهُ إلى عيسى : إما أن يُبلِّغَهنَّ أو تبلِّغْهنَّ، فأتاه عيسى فقال له : إنك أُمِرتَ بخمس كلماتٍ أن تعملَ بهن، وتأمرَ بني إسرائيلَ أن يعملوا بهن، فإما أن تُبَلِّغَهنَّ وإما**

[1] [رواه الشيخان].

أن أُبلِّغَهنَّ، فقال له، يا رُوحَ اللهِ إني أَخشى إن سبقْتَني أن أُعَذَّبَ أو يُخسَفَ بي، فجمع يحي بني إسرائيلَ في بيتِ المقدسِ حتى امتلأ المسجدُ فقعد على الشُّرُفاتِ فحمد اللهَ وأثنى عليه ثم قال : إنَّ اللهَ أمرني بخمسِ كلماتٍ أن أعملَ بهن وآمركُم أن تعملوا بهنَّ . وأولهنَّ : أن تعبدوا اللهَ ولا تشركوا به شيئًا، فإنَّ مثلَ من أشرك باللهِ كمثَلِ رجلٍ اشترى عبدًا من خالصِ مالِه بذهبٍ أو ورِقٍ، ثم أسكنه دارًا، فقال : اعملْ وارْفَعْ إليَّ، فجعل العبدُ يعمل ويرفعُ إلى غير سيِّدِه، فأيُّكم يرضى أن يكون عبدُه كذلك ؟)[1] هذا حال المشرك، كحال الإنسان أتى بخادم ليخدم في محلٍّ أو في تجارة معينة، فصار العامل يعمل والأرباح يعطيها لآخر.

الله جل وعلا أتى بنا لهذه الدنيا، لنعبده ولنفرده بالعبادة، والثواب والأجر يرجع إلينا، فصار الناس يقدمون هذه العبادة لغير الله سبحانه وتعالى، فهذا يدل على شناعة الشرك وأنه أمر عظيم وليس بالسهل، والواجب أن يجتنب الشرك بجميع أنواعه، وبجميع أصنافه، ماكان من الشرك الأكبر، أو من الشرك الأصغر، ومر الكلام كثيرا على أنواعه في شرحنا على كتاب التوحيد، في دروس لا تزال معنا في هذا المسجد، وإن كان توقفنا عنها لشهر رمضان، وسيأتي إتمامها بعد نهاية الشهر إن شاء الله تعالى، وهذا الكتاب الذي ندرسه فيه إشارة إلى كثير من أنواع الشرك، وبيانها حتى تجتنب ولا يقع فيها المسلم.

{**فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**} فهاتان الآيتان ظاهرتان -كما ذكرت- على وجود الله تبارك وتعالى، وعلى أنه الخالق المالك المدبر، وعلى أنه المعبود بحق سبحانه وتعالى، دون ما سواه، وقد جاءت في آيات كثيرة الإشارة إلى الدلالة على وجود الله سبحانه وتعالى، وعلى وجود الخالق جل وعلا، وهذه الآية مادام فيها الأمر بعبادته، فلا شك أنها تفيد من باب أولى أنه هو الخالق سبحانه وتعالى.

---

[1] [صحيح الجامع ١٧٢٤: صحيح]

قال الله تبارك وتعالى

وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا
فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ
إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿23﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا
النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿24﴾

{**وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ**} بعد أن قرر سبحانه وتعالى في الآيتين السابقتين وحدانيته وربوبيته جل وعلا، وأنه المعبود بحق، دون ما سواه، شرع في الإشارة والكلام على تقرير نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

فقال مخاطبا الكفار {**وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ**} أي في شك، وتردد واضطراب، وعدم يقين {**مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا**} أي هذا القرآن الذي أنزله الله جل وعلا على النبي صلى الله عليه وسلم، إن كان لكم شك أو ريب فلتأتوا بسورة واحدة من مثل هذا القرآن، ولكم في ذلك أن تدعوا ما شئتم من الشهداء، والشفعاء والأعوان، والمساعدين على إنجاز مثل هذا، إن كنتم صادقين، في دعواكم هذه أي في التردد والريب مما أنزل الله جل وعلا على النبي صلى الله عليه وسلم.

والله تبارك وتعالى قد تحدى المشركين في غير ما آية، في هذه الآية {**فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ**}، وقال في سورة الإسراء {**قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**}الإسراء٨٨، أي معينا ومساعدا، وقال في سورة هود {**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**}هود١٣، وقال في سورة يونس {**وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**}يونس٣٧-٣٨.

فهذه الآيات التي سبقت كلها من الآيات المكية، التي تحدى الله جل وعلا فيها أهل الكفر على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، ثم تحداهم أيضا في هذه السورة وهي سورة البقرة، وهي سورة مدينة، تحداهم جل وعلا على أن يأتوا بمثل هذا الكتاب، وبمثل هذا القرآن، وإن وقعوا في تردد وريب، فلهم أن

يجمعوا ما شاؤوا من الشفعاء، والشركاء والمعينين على أن يأتوا بمثل القرآن، ولكنهم يعجزون عن ذلك ولا يستطيعون أبدا.

ولهذا قال جل وعلا، {**فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا**} إذا لم يقع هذا منكم، ثم أكد لهم أنهم لن يفعلوا هذا {وَلَنْ تَفْعَلُوا} (**لن**) هذه التي تفيد النفي على التأبيد، وهذا النفي في الحقيقة دلالته على التأبيد بقرينة، لأن الله جل وعلا قال {**قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**}الإسراء٨٨، فإذا لم تستطيعوا ذلك، ولتتأكدوا جزما أنكم لا تستطيعون ذلك {**فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ**} أي إذا كان عجزكم قد ظهر عن الإتيان بمثل هذا القرآن، فلتجعلوا بينكم وبين النار وقاية، تقيكم من هذه النار.

{**فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا**} الوقود هو ما تشتعل به، ما يلقى في النار لإضرامها، أي شدة اشتعالها، كالحطب وغيرها، فهنا مما يزيد النار اشتعالا {**النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ**} قال المفسرون هي حجارة الكبريت العظيمة السوداء الصلبة المتينة التي هي من أشد الحجارة التي تزيد النار وقودا {**فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ**} فالحجارة وقودها، كما أن الحطب وقود النار، كما قال جل وعلا، {**وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا**}الجن١٥.

قال {**أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ**} أي هذه النار للكافرين، وهذا هو الأقوى، قال بعض العلماء: أعدت هذه الحجارة، والأقوى أن الضمير يعود إلى النار التي وقودها الناس والحجارة، والقولان متلازمان، فإن كانت الحجارة أعدت للكافرين، فهذه الحجارة بها تتوقد النار وتزداد شدة في التهابها وذلك مما أعده الله سبحانه وتعالى للكافرين.

واستدل بعض العلماء من أهل السنة بهذه الآية على أن النار والجنة موجودتان الآن، خلافا لما ذهب إليه بعض أهل البدع كالمعتزلة وغيرهم ممن لا يرون وجود النار الآن، والصواب أنها مخلوقة وموجودة، الجنة والنار كما قال العلماء مخلوقتان وموجودتان، ولا تفنيان أبدا، كما دلت على ذلك الأحاديث.

وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم أنه وقال (**تحاجَّتِ النَّارُ والجنَّةُ**)[١]، وفي حديث الكسوف أنه عليه الصلاة والسلام عرضت عليه الجنة، وعرضت عليه أيضا النار، التي وهذا صريح في أن الجنة والنار مخلوقتان، وأيضا موجودتان الآن.

[١] [صحيح مسلم٢٨٤٦]

وقوله لهنا {**فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ**} سواء كانت قصيرة أو طويلة، فالتحدي وقع بأقصر السور، كما هو واقع بأطول السور.

قال الله تبارك وتعالى

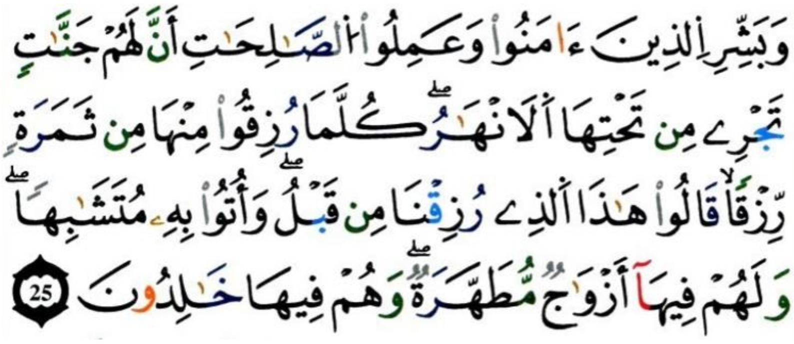
وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ 25

قال بعد ذلك {**وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**} بعد أن ذكر عز وجل ما أعده للأعداء الأشقياء، من الكافرين بالله ورسله، ما أعده الله عز وجل من العذاب والنكال، عطف على ذلك بذكر حال الأولياء، والمؤمنين والمتقين، الذين صدّقوا، وآمنوا بالله جل وعلا والنبي صلى الله عليه وسلم، واتبعوا النبي صلى الله عليه وسلم فيما جاء به، من ربه سبحانه وتعالى.

وهذا من معاني تسمية القرآن بالمثاني، فإنه بعد ذكر الكافرين يثني بذكر المؤمنين، وبعد ذكر عذاب أهل الكفر، يذكر نعيم أهل الجنة، وبعد أن يذكر حال السعداء يذكر حال الأشقياء وعكس ذلك، وحاصل معنى المثاني أن في القرآن ذكر الشيء وما يقابله، وأما ذكر الشيء ونظيره -أي ومثيله- فهذا من معاني كون قرآن متشابها، كما قال جل وعلا {**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ**}الزمر٢٣.

فقال {**وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**} آمنوا أي حققوا الإيمان بالله جل وعلا، وهذا إنما ينبغي أن يكون مبنيا على علم، ويقين ومعرفة بالله سبحانه وتعالى، فينبغي للمسلم أن يجتهد في تحصيل العلم بالله سبحانه وتعالى، وهذا الإيمان من لوازمه العمل، فالعمل من تمام الإيمان، ولا يصح الاستدلال بهذه الآية كما ذهب إلى ذلك أهل الإرجاء، فجعلوا العمل خارجا عن الإيمان، فيقولون الإيمان في القلب فقط، والعمل ليس من الإيمان! هذا خطأ، وليس عليه الصحابة الكرام ولا

السلف الصالح، بل الذي دلت عليه نصوص الكتاب والسنة أن العمل من الإيمان، فالله جل وعلا قال {**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ**}البقرة١٤٣ أي صلاتكم، فسمى الصلاة إيمانا.

والعطف هنا {**وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**} ليس بمعنى العمل ليس من الإيمان، وإنما هذا من عطف الخاص على العام، فالإيمان يشمل العمل والعمل هنا معطوف على العام، كما قال جل وعلا {**تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا**}القدر٤، قال بعض العلماء الروح هنا جبريل، وجبريل من الملائكة، وقال جل وعلا {**مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ**}البقرة٩٨، جبريل وميكائيل من الملائكة، فهذا من عطف الخاص على العام، لبيان عظمة هذا الذي عُطف، مع أنه داخل في العام مع ذلك ذكر، ولهذا فالآية كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- ما استدل قوم على بدعتهم إلا كان عند التحقيق دليلا عليهم، وليس دليلا لهم، فقوله {**وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**} العمل داخل في الإيمان، وعطفه على الإيمان يدل على أهميته في الإيمان.

{**أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ**} هذه الجنات من أوصافها أنها تجري من تحتها الأنهار أي تحت أشجارها وتحت غرفها، وهذا جاء وصفه في أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، في بيان حوض الكوثر، وأن حافتيه قباب اللؤلؤ المجوّف، كما قال صلى الله عليه وسلم، وأن حصباءها اللؤلؤ والجوهر، وأنه تجري من تحته الأنهار، وهي أشد بياضا من اللبن، وأحلى من العسل، وآنيتها عدد النجوم أو كما قال عليه الصلاة والسلام، والأحاديث في بيان نعيم الجنة وحوض الجنة كثيرة وكثيرة جدا، ومنها هذا الحديث الذي ذكرناه، فنسأل الله جل وعلا من فضله إنه سميع قريب واسع الفضل، والمنة.

قال {**كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا**} يعني كلما جاءهم من ثمر الجنة شيء من الرزق {**قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ**} إذا جاءهم هذا الثمر، وهذه الثمار نظروا إليها قالوا: هذه التي كنا نُرزق في الدنيا، أي هذا الذي كان يأتينا رزقا بالأمس ونحن في الدنيا، ولكن كما قال بعض العلماء: فتقول الملائكة: نعم اللون واحد، والطعم مختلف، فهو يشبه بعضه بعضا، ويختلف في الطعم.

وقالوا بعض العلماء {**وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا**} أي في اللون والمرأى، وليس يشتبه في الطعم، ولهذا قال ابن عباس (**لا يشبه شيء مما في الجنة ما في الدنيا إلا في الأسماء**)، وفي رواية (**ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء**)[1].

[1] [رواه ابن جرير من رواية الثوري وابن أبي حاتم في تفسيره (٦٦/١)، وغيرهما. قال البوصيري: " رواه مُسَدَّد موقوفًا، ورواته ثقات"انتهى. "إتحاف الخيرة المهرة" (٢٧٣/٨)، وصححه الألباني في "صحيح الترغيب" (٣٧٦٩).].

وقوله {**وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا**} قالوا: متشابه في اللون والمرأى والمظهر، ولكن الطعم يختلف كما ذكر أهل العلم.

{**وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ**} أي من كل قذر، ومن كل أذى، فلا حيض، ولا غائط ولا بول، ولا نخام، ولا بزاق، ولا مني، ولا نخاعة، ولا غير ذلك مما قد يتأذى منه الإنسان، فالأزواج التي يؤتاها المؤمن في الجنة مطهرة من كل عيب.

{**وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**} وهذا من تمام السعادة العظيمة، فإنه مع النعيم العظيم يبشر الله جل وعلا أنهم في مقام أمين، يأمنون من الموت والفزع والانقطاع، فلا آخر له، ولا انقضاء بل نعيم سرمدي أبدي على الدوام، كما قال عليه الصلاة والسلام **(يا أهلَ الجنَّةِ خلودٌ فلا مَوتَ)**[1].

والله جل وعلا نسأل أن يحشرنا في زمرة هؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ممن يُعطون الجنات، التي تجري من تحتها الأنهار، إنه سميع قريب جواد كريم.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

[1] [رواه الشيخان].